سبع سنين القحط

رواية مصرية قديمة

وجدت هذه الرواية مدوّنة بالخط الهيرغليفي على حجر اثري من الجرانيت مستدير القمة يبلغ ارتفاعهُ ثماني اقدام او تسع مقام في الجنوب الشرقي من جزيرة الساحل على بعد ثلاثة اميال من اسوان . وعثر نقوش هذا الاثر على غيرها بحفرها بطريقة مدبّبة غير واضحة . وتبلغ مساحتها ست اقدام طولاً وخمسة اقدام عرضاً . واول من اكتشف هذا الحجر المستر ويلبور (C. E. Wilbour) الاميركي في ٦ فبراير سنة ١٨٨٩ اثناء مباحثهِ في مصر . فنقل نقوشهُ وكلّف صديقهُ المستر مودسلي Maudslay بتصويره . ثم ارسل النقوش والصور الى الاستاذ بروكش الاثري الالماني الشهير عام ١٨٩١ وهذا ترجمها وشرحها ثم نشرها تحت عنوان سنوات القحط السبع المذكورة في التوراة (١)

وملخّص الرواية انهُ وقع في القطر المصري في عهد الملك (تشسر) احد ملوك العائلة الثالثة (٣٠٠٠ ق . م .) قحط شديد استمر سبع سنوات (نتيجة قلة الفيضان) فنسبهُ الخلق وقتئذٍ الى عدم الاعتناء بعبادة المعبود (خنوم) الذي بيدهِ مقاليد الفيضان . فلما عاد القوم الى عبادة هذا المعبود وقدموا اليهِ القربان والهدايا أمر (حاعبي) أي اله النيل ليفيض . فعلا الى منسوبهِ المعتاد وكثرت خيرات البلاد وزال القحط والفقر . ويستدل من نقوش هذا الاثر وعبارتهِ واسلوبهِ انهُ من ايام البطالسة وقتما رجعت عبادة (خنوم) الى عظمتها السابقة بسعي كاهن هذا المعبود . ولم يُعرف للآن السبب الحقيقي في نسبة هذا القحط الى عهد الملك (تشسر) وربما كان الغرض منهُ اظهار قِدَم عبادة (خنوم) . فاذا كان الامر كذلك اليس من الاجدر نسبة القحط المذكور الى ملوك العائلة الأولى فيتيسر بذلك الجمع بين عبادة (خنوم) وظهور الحضارة المصرية القديمة ؟

ولا يخفى ان القطر المصري كثيراً ما يصاب بامثال هذا القحط لاعتمادهِ الكلي على مياه النيل . من ذلك ما ورد في التوراة والقرآن عن حدوث القحط في مصر على ايام سيدنا يوسف وكان مجيء سيدنا يوسف الى مصر ايام العائلة السادسة عشرة

(1) Die biblischen sieben Jahre der Hungesnoth, Leipzig 8vo.

تحت حكم الرعاة وذلك حوالي سنة ١٦٦٠ قبل الميلاد

قال والدي المرحوم احمد كمال باشا في كتابه العقد الثمين صحيفة ٧٧ ما يأتي : —

ومما يؤيد حصول القحط في عهد سيدنا يوسف عليه السلام ما وجد على احد مقابر قرية الكاب من النقوش المنسوبة لرجل مصري يدعى (بابا) : ولقبهُ (أبانا) وهو من اقارب ملوك السلالة الثالثة عشرة . وكان معاصراً ليوسف عليه السلام . وهذا تعريب ما نقشهُ من مناقبه « كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب . ولذا اكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا . وكان اهل بلدي وهي الكاب تهنئني بالصحة والسلامة . كنت اقتصّ من المسيئين . ورزقت من الاولاد مدة حياتي باثنين وخمسين ولداً (بين ذكر وانثى) وكان لكل واحد منهم سرير وكرسي وسفرة . وكانوا يأكلون كل يوم ١٢٠ هدًّا من القمح والحبوب . وكان لهم ثلاث بقراتٍ حلوبة و ٥٢ من المعز وثمانية حمير . وكانوا يحرقون من البخور ما ينوف على الهنّ (مكيال مصري قديم) ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين . فلن ناقضني احد وظن انهُ انحوكة فأشهد المعبود (مونت) على ما قلتهُ من الحق . وانني احضرت جميع ذلك في بيتي . وكنت اعطي اللبن الراثب في قدر والبوظة في قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد عن الهنّ . وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الطيب (اي الملك) . وكنت مستيقظاً وقت الزراعة في السنين المخصبة ولما حصل القحط مدة كثيرة من السنين كنت اعطي القمح لأهل المدينة في كل مجاعة . وبهذا تعلم ان وقت تنبيههِ زمن الزراعة وصرفهِ الغلال للناس وقت المجاعة هو اشارة بلا شبة الى سنين يوسف المخصبة والمجدبة اهـ (بركوش)

وقد حصل قحط في القطر المصري ايام عبد اللطيف البغدادي اثناء اقامتهِ في القطر المصري سنة سبع وتسعين وخمس مائة هجرية وصفهُ بقولهِ [١] : —

« ودخلت سنة سبع (اي سبع وتسعون وخمس مائة) مفترسة اسباب الحياة . وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقفحطت البلاد وأشمر اهلها البلاء . وهرجوا من خوف الجوع . وانضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد . وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن . وتفرقوا في البلاد أيادي سبا . ومزّقوا كل ممزق . ودخل الى القاهرة ومصر خلق عظيم . واشتدّ بهم الجوع . ووقع

(١) الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي صحيفة ٤٩

فيهم الموت . وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ووقع المرض والموتان. واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبقر والارواث . ثم تعدّوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم . فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويّون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل

« ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعهُ رجل وامرأة زعم الناس أنهما ابواهُ فأمر باحراقهما . . . . . وقد رأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ بهِ شابان أقرّا بقتله وشيّه وأكل بعضهِ. وظهر من هؤلاء الخبثاء من يتصيّدون الناس باصناف الحبائل ويجتذبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل . وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء . . . وهذه البليّة التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر . ليس فيهِ بلد إلا وقد أكل فيهِ الناس أكلاً ذريعاً في اسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي . . »

لنرجع الآن الى الاثر المصري القديم الذي نحن بصددهِ. فنقول أنهُ يبدأ بذكر الحادثة التاريخية الآتية : —

في السنة الثامنة عشرة من حكم ملك مصر (تشسر) ارسل جلالتهُ الى الامير (معدو) رئيس معابد الوجه القبلي والبحري ومدير قسم اسوان رسالة قال فيها « أني اجلس فوق عرشي في بؤس وضيق . فقلبي متألم لما صُدعت بهِ بلادي من قلة فيضان النيل سبع سنين . فقد نفدت الحبوب والخضراوات والمأكولات وكثرت السرقات والتعديات . فاذا همّ القوم يعشون خانتهم قوائم . فالشبّان يجرّون اعضاءهم جرًّا . وقلوب الطاعنين يئست من الفرج. فعجزوا عن السير وسقطوا على الارض وامسكوا بطونهم بايديهم تألماً وتضجّراً من الجوع . أما وزرائي فقد عجزوا عن النصيحة وطرشوا. واما المخازن ففارغة هاوية. وأما البلاد فخربة تعسة »

هذا الوصف يظهر درجة القحط الذي اصاب القطر المصري في تلك العصور

يلي ذلك سؤال من الملك (تشسر) الى الامير (معدو) عن منبع النيل وعن المعبود المهيمن عليهِ وعن شكل المعبود وهيئتهِ . وان الملك يرغب في الذهاب الى معبد المعبود (نحوت) ليستفهم منهُ عن ذلك . ويستشير جماعة السحرة عن الكتب المقدسة التي تحوي تلك المعلومات

فلما قرأ الامير (معدو) رسالة ملك مصر الى اليهِ واخبرهُ ان النيل ينبع

بجوار اسوان من كوفين عظيمين يقال لهما ثدي النيل . وان ارتفاع المياه في تلك الجهة يبلغ ثمانية وعشرين ذراعاً . امّا في الدلتا بجوار بلدة بهبيت (قسم معهود اي القسم السابع عشر من اقسام الوجه البحري) فيبلغ سبعة اذرع . وان المعبود المنوط به فيضان النيل هو (خنوم) وان الفيضان نتيجة فتح هذا المعبود لابواب مجرى المياه بعد ما يضرب الارض بمخفيه . ووصف (معدو) المعبود (خنوم) بقوله انهُ شبيه المعبود (شو) اي الهواء ووصف ايضاً أفعالهُ ومعبدهُ وقربهُ من محاجر الجرانيت الشهيرة . وذكر ايضاً المعبودات الكثيرة التي تعيش تحت سيطرة (خنوم) وهي اله النيل (حعبي) واله الهواء (شو) واله الارض (كب) واله السماء (نوت) واله الموتى (ازوريس) واله النار (نفتيس) واله النصر (حوريس)

فسافر الملك الى جزيرة الفيل بجوار اسوان وتفقدها . فسرّ قلبهُ منها . ثم زار معبد (خنوم) وصبّ الكاهن عليهِ المياه المقدسة . ثم قدّم الملك هدايا وقرابين عظيمة لمعبودات تلك الجهة . وتضرّع الى (خنوم) ليزيل قحط البلاد . فاجابهُ « أنا (خنوم) خالقك الذي وهبك قلبك » ثم شكى من كسل الاهالي وعدم استخراج خيرات البلاد ليقدّم منها قرابين الى معبودات القطر . وقال للملك انهُ سيكافىء كل من يخدمهُ ويعبدهُ بالخيرات والهبات وانهُ سيكثر من الفيضان الى الحد المطلوب . فتفيض محصولات البلاد وتمتلىء المخازن . فاستشاط الملك لذلك وأمر بارجاع عبادة (خنوم) الى مركزها السامي السابق وشرفها العظيم السالف . وأصدر بعد ذلك امراً ملكياً بوقف قطعتين من الاراضي لمعبد (خنوم) وبأمر كل من تسقى ارضهُ مياه النيل بالقرب من معبد (خنوم) ان يقدّم للمعبد المذكور قرباناً سنوياً من محصولاتهِ وكل من يصطاد في تلك الجهة ان يقدم عشر صيده الى معبد (خنوم) ووضع ذلك كله تحت اشراف رجال الحكومة

يلاحظ مما سبق (١) ان هذا الاثر من عهد البطالسة وان الغرض منهُ اظهار عظمة المعبود (خنوم) (٢) ان حصول قحط أيام الملك (تسر) جائز

(٣) ان القحط كثير الحصول في تاريخ مصر وهو نتيجة قلة فيضان النيل

(٤) الرأي السائد ايام العائلة الثالثة ان منبع النيل هو في جهة اسوان

(٥) ان ارتفاع النيل جهة اسوان كان يبلغ ٢٨ ذراعاً وجهة بهبيت ٧ أذرع

الدكتور حسن بك كمال طبيب بمستشفى الحميات